دعتنى المطايا للرحيل واتى لأفرق من ذكر النوى والتفرق
وإنى إذا غربت عنك فانما جبينك شمس والمرية مشرق.

وكان المعتصم ، كالمعتمد بن عباد ، شاعراً مجيداً : كتب الى الوزير الشاعر بن عمار :

ورهدنى فى الناس معرفتى بهم وطول اختبارى صاحبا بعد صاحب
فلم ترنى الايام خـــلا تسرنى مباديه إلا ساءنى فى العواقب
ولا قلت أرجوه لدفع ملمة من الدهر إلا كان إحدى المصائب

طوى الامير أربعين عاما فى امارته ، شاع فيها ذكره ونبه اسمه ، وحلب الدهر أشطره ، ورأى أحداثه وعبره . ثم حم القضاء وبعث ابن تاشفين جنوده على ملوك الطوائف تثل عروشهم ، وتعفى على آثارهم . ولقى « رجلا الجزيرة » الصدمات الاولى فدارت على المعتمد الدائرات ، فاذا هو أسير أغمات ، وللمعتمد بن عباد قصة ملؤها العبرات والزفرات .

وعلم ابن حماد بما أصاب صاحبه فملكه الغم ، وناء به الحزن ، وكان أسعد من صاحبه جدا ، نجاه الموت من الاسار ، وأنقذه الحمام من المذلة : رب عيش أخف منه الحمام . ولله ابن بسام حين يقول : « وكان بين المعتصم وبين الله سريرة أسلفت له عند الحمام يدا مشكورة . فمات وليس بينه وبين حلول الفاقرة به الا أيام يسيرة ، فى سلطانه وبلده ، وبين أهله وولده »

دع مـا نمق الكتاب ، وأنشد الشعراء ، ودع أربعين طواها الزمان كأنها أحلام ، وانظر المعتصم ليلة الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة — الليلة التى طلع عليه بالردى فجرها — هاهو ذا على فراش الموت فى قصره بالمرية ، ومعسكر ابن تاشفين على مقربة من المدينة ترى خيامه ، وتسمع ضوضاءه . ويسمع المعتصم وجبة من الجيش اللجب ، والجند المصطخب ، فيقول كأن لم ينعم بالملك والجاه أربعين عاما !

لا إله الا الله ! نغص علينا كل شىء حتى الموت ، قالت « أروى » أحدى جواريه :

« قد دمعت عينى ، فلا أنسى طرفا الى يرفعه ، وانشاده لى بصوت لا أكاد أسمعه ،

« ترفق بدمعـــك لا تفنه فبين يديك بكاء طويل »

عبد الوهاب عزام

الحرص على الحيـــاة

للعلامة الأمير مصطفى الشهابى

عضو المجمع العلمى العربى بدمشق

لكم تساءل الانسان عن هذه الحياة ومعناها ، ومبدأها ومنتهاها ، ولكم أجهد نفسه بلا جدوى للحصول على جواب مقنع تسكن اليه نفســه الكليمة من أحاجى هذا الكون . وهو بين الأزل والأبد يمر فى هذه الحياة الدنيا كأسرع من إيماضة كهربائية تطوى الارض فى أقل من ثانية ! .

ماهى هذه الحياة الكامنة فى جنين بزور النبات ، وكيف تحتفظ بعض البزور المجففة بخاصة « الاتتاش » عشرات من السنين ، حتى اذا زرعت وابتلت دبت فيها الحياة فضربت « تنشها » فى الارض وأبرزت ســـداها فوق التراب يتلس الشمس والهواء . وهو أحرص على الحياة من الشيخ الفانى والهرم البالى . وراقب جذور هذه النبتة كيف تخترق ذرات التراب وتتغلغل فيها سعياً وراء الماء اللاصق بها حيث تجد غذاءها مذابا صالحا للامتصاص . والغريب أنك كيفما أدرت ذلك الماء دارت الجذور معه وسعت اليه كأنها تدرك أن لا حياة لها إلا به . واذا ما وضعت حاجزا معدنيا بينها وبين ذرات التراب المبتلة دارت حوله حتى تتخطاه ، وان أعياها الأمر أفرزت حوامض تذيبه ، حتى اذا ثقبته دخلت فى الثقب كما يفعل الكماة عندما يخرقون سور المدينة الحصينة ، ويدخلون من الخرق فيستولون عليها وينعمون بها .

وانظر الى الازهار الموضوعة فى نافذة غرفتك كيف تميل الى الخارج تستقبل الضياء حتى لكأنها تفر من الظلام الى النور . والحظ الاشجار المغروسة بجانب أحد الجدران كيف تبتعد عنه باغصانها النوامى فتبدو عريانة فيما يليه كان قضبانها اللدنة لا تلتذ برغد العيش الاحيث يتماوج النور ويتلاعب الهواء . وهذه زهرة تدور مع الشمس من مبزغها الى مغربها حتى سموها عبادة الشمس . وتلك ورقة مركبة تفتح وريقاتها فى النهار وتضمها فى الليل مرتقبة شروق الشمس فى اليوم التالى وهى أحرص ما تكون على الانتفاع من شعاعها المنير . واعجب لتلك النبتـــة الحساسة التى يسمونها « مستحية » ، وخجولة اذ تنطبق أوراقها عند ما يمسها الانسان ، وتنكمش اغصانها وتتدانى كأنها تشعر بالخطر المحـــدق

بها فتبتعدعنه ، وكأنها تستعدلمغالبة ذاك الذى جاء ينتزع منها الحياة . وأغرب منها قواتل الحشرات التى تنطبق أزهارها على الذباب فتميته وتعصره وتغتذى بعصارته بعد أن تحتال عليه بشتى الحيل لئلا يفلت منها فيفوتها رزقها وتفوتها الحياة .

أماالحشرات فلها أفانين واعاجيب فى التشبث بالحياة والتعلق بها ولا سيما بواسطة أنسالها . والذى يتاح له أن يرى مثلى بعض أنواعها ويتابع سير حياتها بالمجهر أو بالعين أو بالعدسات يذهل من أساليب التلاقح والتسافد بين الذكر والأنثى ومن ضروب الحيل والقسوة التى ربما أدت بأحدهما الى الهلاك فى سبيل حفظ النسل وضمانة بقاء النوع حيا . وما من أحد الا وله معرفة بخلية النحل ويعسو بها ، وقرية النمل وأنابيرها ، وخيوط العناكب ومصايدها ، دع الحيوانات العليا وما تفتقه قرائحها من ضروب الحيل إما فى اتقاء عدو أو تلمس قوت أو إخلاف نسل . والنتيجة فى كل ذلك واحدة وهى بقاء النوع ببقاء الحياة فيه .

لكن ابن آدم الذى سمت مداركه ، كيف تلذله الحياة على ما فيها من شرور وآثام وآلام مبرحة ، ولماذا ترتعد فرائصه من الموت ، ويقف شعره لشدة فزعه منه ؛ وما هذه الشهوة الشديدة التى تدفعه الى الانسال ، وتلك العاطفة الغريزية التى تجشمه أشد المتاعب وأضناها فى تربية الابناء وإعدادهم للحياة . تمر كل هذه الأسئلة فى خاطر الانسان فلا يحير لها جوابا لأنه لا يفقه شيئا عن ماهية الحياة ولا عن الغاية منها . وإذا باصحاب مذهب العدم أى العدميين ينتصبون قائلين : أما والحياة ليست سوى مجموعة من الآلام التى لاحد لها ولانهاية ، فما علينا الآن نقضى عليها بقتل كل حى على هذه الكرة الارضية الحقاء . فيضحك العالم من هذا الرأى ويجيب : هبوا الناس قبلوا رأيكم هذا وعملوا به ، فاذا يحصل بعد ان تفقد الحياة على هذه الكرة ؟ هل تظل الأرض خالية من الأحياء ، تدور دون ان يدرك احد دورانها ، ويتعاقب الليل والنهار دون ان يحس احد تعاقبهما ؟ هذا مالا يقبله العقل السليم .

والراجح ان العلة التى اوجدت الحياة ستعيدها سيرتها الأولى مهما تعددت آراء اصحاب الاديان والمذاهب والفلسفات المختلفة والعقائد المتناقضة والعلوم الحياتية المحدودة فى تفسير هذه العلة وفى تحديد ماهيتها . وعندئذ تعود الحياة الى ما كانت عليه ، ويعود الأحياء الى التكاثر والتنوع والتناحر والتفانى وتكون نتيجة العمل برأى العدميين وقف الحياة بضعة ملايين من السنين ، وهى بعد لاتعد شيئا مذكورا فى هذه الدهور الأبدية ، والكائنات السرمدية .

مسكين أنت أيها الانسان ! ما أشقاك بهذه الحياة ! عقل قاصر وجد عاثر ، وإدراك بسيط ، وحواس محدودة . تأتى الى هذه الحياة وأنفك راغم ، فتعيش بأوهامك وأخيلتك الشعرية التى لاظل للحقيقة فيها ، ثم تجالد وتكافح وتتألم وتشقى وتتوهم السعادة أحياناً ، لكنك سرعان ما تهلك مقهوراً مدحوراً ، فلئن كانت لك أمنية فى حياتك هذه فأجلها أن يسمو العقل البشرى حتى يصير قادراً على اكتناه أحاجى هذا الكون الغامضة .

من طرائف الشعر

شوقية لم تنشر

نظمها شاعر الخلود شوقى بك

فى الطلاب المصريين الذين يتعلمون فى أوربا

قف حيّ شبان الحمى قبل الرحيل بقافيه
عوّدتهم أمثالها فى الصالحات الباقيه
من كل ذات اشارة ليست عليهم خافيه
قل يا شباب نصيحةً مما يزوّد غاليه
هل راعكم أن المدا رس فى الكنانة خاويه
هجرت فكل خليّة من كل شهد خاليه
وتعطلت هالاتها منكم وكانت حاليه
غدت السياسة وهى آ مرة عليها ناهيه
فهجرتمو الوطن العز يزإل البلاد القاصيه